

حجية القياس

والحاصل أن إلحاق المسكوت عنه بمنطوق أمر لا شك فيه، وأن نظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، والله -جل وعلا- قد بين نظائر في القرآن كثيرة العلم بها إلحاق النظر بالنظر، والتي -صلى الله عليه وسلم- أرشد أمته إلى ذلك في أحاديث كثيرة. فمن ذلك أن عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- لما سأل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن القبلة للصائم، فقال له: { أ رأيت لو تميمضت؟ } فهذا إشارة من النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى قياس المضمضة على القبلة، بجامع أن القبلة مقدمة الجماع، وأن المضمضة مقدمة الشرب فكل منهما مقدمة إبطار، وليست بإبطار، ومحل كون القبلة كالمضمضة إذا كان صاحبها لا يخرج منه شيء، أما إذا كانت القبلة تخرج منه شيئاً فهو كالذي إذا تميمض ابتلع شيئاً من الماء فحكمه حكمه. وكذلك ثبت عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في أحاديث متعددة في ذلك في الصحيحين أنه سأله رجل مرة، وامرأة مرة عن دين فضيانه على ميت لهما، مرة تقول: أمي، ومرة تقول: أمي، وكذلك الرجل، فقال النبي -صلى الله عليه وسلم- { أ رأيت لو كان على أمك دين فضيته أكان ينفع؟ قالت: نعم. قال: فدين الله أحق أن يقضى؟ } هو تنبيه منه -صلى الله عليه وسلم- على قياس دين الله على دين الآدمي بجامع أن الكل حق يطالب به الإنسان، وأنه يقضى عنه بتغيره مستحقه. وأمثال هذا كثيرة، ومن أصرحها ما ثبت في الصحيحين أن النبي -صلى الله عليه وسلم- جاءه ... من سواد الغلام، ووطن أنها زنت برجل أسود، وجاءت منه بهذا الولد فجاء للنبي -صلى الله عليه وسلم- منزعجا، وأخبره أنها جاءت بولد أسود، وكان يريد أن يلعنها، وينفي عنه الولد باللعان، زعما أن هذا الولد من ثان أسود، وأنه ليس ولده؛ لأنه هو أبيض وزوجته بيضاء فقال له النبي -صلى الله عليه وسلم- { هل لك من إبل؟ قال: نعم. قال: ما ألوانها؟ قال: حمر الألوان. قال: هل فيها من أورك؟ } والأورق المتصف بلون الورقة، والورقة لون كلون حمام الحرم يعني سواد يعلوه بياض يكون في الإبل. { قال الرجل: إن فيها لورقة، قال: ومن أين جاءتها تلك الورقة؟ أبناؤها حمر، وأمها حمر فمن أين جاءت الورقة؟ قال: لعل عرفا نزعها، قال له: وهذا الولد لعل عرفا نزع؟ فافتتح العربي وهذا إلحاق نظير الباطل بالباطل، وبالجملة فنظير الحق حق، ونظير الباطل باطل، وهذا مما لا يشك فيه، وأن القياس من قواسم صحيح لا شك فيه كالأمثلة التي ذكرنا، ومنه قياس فاسد. والقرآن ذكر بعض الأقيسة الصحيحة، وبعض الأقيسة الصحيحة، فمن الأقيسة الصحيحة في القرآن قوله تعالى: { إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِحَسَنَاتٍ فَيُؤْتِيهِمْ مِنْ تَحْتِ الْعَرْشِ مَائِدًا فَاتَّخَذُوا مِنْهَا حَتًّا إِنَّهُمْ جَاءُوا بِهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ } . وهذا الولد لا بد أن يكون له والد، وهذا الولد رجل فجرت معه، وزينت به، فالله -جل وعلا- فاس لهم هذا الولد على آدم بجامع أن آدم خلق ولم يكن له أم ولا أب، فالذي خلق آدم ولم يكن له أب ولا أم فهو قادر على أن يخلق عيسى من أم، ولم يكن له أب كما خلق حواء من صلع رجل. فالله -جل وعلا- جعل خلق الإنسان قسمة رباعية بعض خلقه لا من ذكر ولا أنثى، وهو آدم وبعض خلقه من أنثى ولا ذكر، وهو عيسى ابن مريم وبعض خلقه من ذكر دون أنثى، وهي حواء؛ لأن الله يقول: { خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ أَدَمَ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا } . والقسم الرابع خلقه من ذكر وأنثى فقياس عيسى على آدم بجامع أن الذي أوجد آدم بقدرته يوجد عيسى بقدرته، وأمثال هذا كثيرة، فجاء به. وكذلك فاس الموجودين في زمان النبي على الأمم الماضية، وقال لهم: { أَقَمْتُمْ تِسْبِيحًا فِي الْأَرْضِ فَيَسْأَلُونَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَدْ كُنَّا فِي الْإِلْحَاقِ النَّظِيرَ بِالنَّظِيرِ فَقَالَ: { وَلِكُلِّ قَوْمٍ مَثَلٌ } . كان الموجودين في زمان النبي فرع والكفار المتقدمون أصل، والحكم الذي عهده المهدي به العذاب والهلاك، والعلّة الجامعة تكذيب الرسل والتمرد على رب العالمين، وأمثال هذا في القرآن كثيرة، وكذلك ما يسمونه قياس العلة، وهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل علة يكثر في القرآن جدا كقوله جل وعلا: { وَمَنْ آتَاهُ تِلْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي آخَتْهَا لَمُعْجِيهِ الْقُوَى } فقياس إحياء الموتى الذي ينكره منكرو البعث على إحياء أرض مشاهد؛ لأن كلا منهما إحياء، وهذا الإحياء للموجود بدل على قدرة قادر كاملة باهرة، بقدر بها من انصف بها على إحياء الموتى كما أحيى الأرض بعد موتها. وكما استدل -جل وعلا- بقياس الأولى على الأولى، واستدل بأن من خلق السماوات والأرض لا يعجز عن خلق الإنسان الصغير الحقيق بعد الموت، كما قال: { أَأَنْتُمْ أَنْشَدْتُمْ خَلْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ بَلَّغًا رَفَعْتُمْ سَمْعَهَا فَسَمِعَتْهَا وَأَعْيُنَهَا لَهَا وَآخَرُهَا صَخَاةً مِنَ الْأَرْضِ وَلَمْ يَخْفَى يَخْفَى بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْقَوَى تَلَى } وقاس النشأة الأخرى على النشأة الأولى فقال: { وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَى } والإيجاد الأول فلما قسم عليه النشأة الأخرى والإيجاد الأخير، وعلمتم أن من قدر على الأول قادر على الثاني، كما قال: { قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ } وأمثال هذا كثيرة جدا. أما القياس الفاسد الذي بني مخالفا للنصوص على إيليس-لعنه الله- وكالأقيسة المخالفة للنصوص، وكأقيسة التشبه المنبئة على الفساد فإن الكفار جاءوا بقياس التشبه كثيرا باطلا، ومثله باطل. كما قالوا في يوسف عليه قينا الصلاة والسلام: { إِنَّ يَسْرُقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ } فأثبتوا السرقة على أخ يوسف لأن يوسف قد سرق قبلم، قالوا: الأخ يشابه الأخ فلزم من مشابهتهما أن يكونا متشابهين في الأفعال، وأن هذا سرق كما سرق ذلك، وهذا قياس تشبه باطل، وهذا النوع من القياس كقياسات إيليس الباطلة. والأخ -لعنهم الله- كذبوا جميع الرسل بقياسات تشبه باطله، لأنه ما جاء رسول إلى قوم إلا قالوا له: أنت بشر، وكونك بشر يجعلك تشبه سائر البشر، ولا تقبل أن تكون رسولا من رب العالمين، وأنت تأكل كما نأكل، وتشرب مما نشرب، وتمشي في الأسواق كما نمشي فيها، ونص الله على أن هذا منع كل أمة قال: { وَمَا مَتَّعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْتَعَتِ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا } فشبهاوا البشر بالبشر قياس تشبه، واستنبجوا من ذلك أنه لا تكون له أفضلية على البشر والرسل-صلوات الله وسلامه عليهم- ردوا عليهم هذا القياس، ورد الله عليهم في آيات، لما قالوا للرسل: { إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا } أجابهم الرسل قالوا: { إِنْ تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلَكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَنْبِئُهُ مِنْ عِبَادِهِ } فمشابهتها في البشرية لا تستلزم تفاوتها في فضل الله، كما قال جل وعلا: { أَيْسَرُ بَهْدُونَنا } { وَلَئِنْ أَعْطَيْنَا بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ } . وقالوا فيه: { تَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ } { أَيْسَرًا مِثًّا وَاجِدًا تَبِعُهُ إِيَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ } وهذا كثير في القرآن، وهذه الأقيسة الفاسدة. والحاصل أن القياس من صحت ومنه فاسد، فالصحيح هو الذي أجمع عليه الصحابة، والتابعون، وأئمة المسلمين، وأحكام الصحابة في القياس لا يكاد أحد يحرصها؛ فقد جاء في صحيح البخاري عن النبي -صلى الله عليه وسلم- ما يدل على أن المجتهدين يختلفون في اجتهادهم، وكلهم لا إثم عليه ولا ضرر عليه؛ لأنه قد ثبت في صحيح البخاري أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة } . هذا نص صحيح صريح سمعه الصحابة بأذانهم من رسول الله، ثم راجوا من المدينة إلى ديار بني قريظة، وأدركتهم صلاة العصر في الطريق فاختلفوا في فهم هذا الحديث، وكل اجتهد بحسب ما أدى إليه فهمه، وجماعة قالوا: ليس مراد النبي -صلى الله عليه وسلم- أن تؤخر صلاة العصر عن وقتها، ولكن مراده الإسراع إلى بني قريظة فوصلوا وسرع فوصلوا وأسرعوا. وجماعة قالوا: العصر وجبت علينا على لسانه -صلى الله عليه وسلم- فلم قال لنا: اتروكها إلى يوم القيامة تركناها إلى يوم القيامة، ولو قال: اتروكها إلى قريظة تركناها إلى قريظة، وجاءوا النبي ولم يصلوا، واجتمعوا عند النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم في خلاف بين مشرق ومغرب لأن من صلى ومن لم يصل مختلفان. فهو -صلى الله عليه وسلم- قررهم جميعا، ولم يخطئ أحدا منهم. ولو كان واحد منهم فعل غير صواب وأمر حراما لما أقره الرسول عليه-صلى الله عليه وسلم- لأنه لا يقر على باطل، ولا يجوز في حقه تأخير البيان عن وقت الحاجة إليه. وثبت في صحيح البخاري عن الحسن البصري -رحمه الله- ما مضمونه ومعناه أنه كان يقول: لولا آية من كتاب الله أشفتك على المجتهدين، وهي قوله تعالى: { وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتِمَانِ فِي الْخَزْئِ } الآية؛ لأن الله جل وعلا صرح بأنهما حكما حيث قال: { إِذْ يَخْتِمَانِ } بألف الاثنين الواقعة على داود وسليمان، ثم قال: { فَهَقَّتْهَا سُلَيْمَانَ } ولم يقل شيئا عن داود فلمع أن داود لم يفهمها؛ لأنها لو فهمها الأب لما اقتصر على الابن، ولما كان للاقتصر على سليمان فائدة مع أنها فهمها، ولو كان هذا وجيا من ذلك ما فهمه أحدهما دون الآخر؛ لأن الوحي أمر لأزلام أكتفي، فدل على أنها فهمتها، وأن سليمان أصاب في اجتهاده، فالله أنثى على كل منهما، ولم يعنف داود بل قال بعده: { وَكَلَّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا } . وقد ثبت في الصحيحين ما يستأنس به لهذا لأنه قد ثبت في الصحيحين أن داود -عليه السلام- في زمنه جاءت امرأتان نفسا، وجاء الذئب فاخطف ابن واحدة منهما، وكانت التي اختطف ولدها هي الكبرى، وبقي ولد الصغرى فقالت الكبرى: هذا ولدي، وتنازعتا، فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى اجتهادا منه لأمارات ظهرت له، أو لشيء في .. يقتضي ظاهره ذلك بالاجتهاد، فرجعتا إلى سليمان فلما رجعتا إلى سليمان قال: كل واحدة منك تدعي، هاتوا بالسكين أشقه بينهما نصفين، فأعطي نصفه لهدى، نصفه لهذه، كان أبو هريرة يقول: ما سمعت بالسكين إلا ذلك اليوم ما كنا نقول لها إلا المدينة، فلما قال: إنه يشقه جزعت أمه التي هي الصغرى، وأدركتها رافة الولد فقالت له: لا، برحمتك لها، وبنيها، وأنا لا حق لي فيه، وكانت الكبرى راضية بأن يشق لتساوها صحة في المصيبة، فعلم سليمان أن الولد للصغرى فقضى به للصغرى. وذكر ابن عساکر في تاريخه ما يشبه هذه الفضة عن داود وسليمان إلا أنه في تاريخ ابن عساکر والله أعلم بصحتها والقصة وعدم صحتها، إلا أن هذا الذي ذكرنا الآن اتفق عليه الشيوخ من حديث أبي هريرة . والقصة التي ذكرها ابن عساکر في تاريخه أنه كان أربعة من أشرف بني إسرائيل راود امرأة جميلة من بني إسرائيل عن نفسها، وكانت بارعة الجمال فمغنعتها، وحاول أن يصل إليها فامتنعت، فاتفقوا على أن يحتالوا عليها حيلة فيقتلونها، فزغوا وشهدوا عند داود أن عندها كلبا علمته الزنا، وأنها تزني بكلبها، وكان مثل هذا عند داود يقتضي حكم الرجم فدعا داود بالشهود فشهد الأربعة على أنها تزني بكلبها فرجمها داود قالوا: وكان سليمان إذ ذاك صغيرا فجمع سليمان الصبيان وجعل منهم شرطا، قال: فلان وفلان جعلهم كالشراطين، وأخذ قوما وجعلهم شهودا، وجاءوا يشهدون، وجعل رجلا كأنه المرأة، وقالوا: نشهد أن هذه زنت بكلبها، ثم قال سليمان للصبيان الذين جعلهم كالشراطين: خذوا كل واحد منهم، وفرقوهم وأتوكم بهم واحدا واحدا، فجاءوه بالرجال فقال: ما تقول في شهادتك؟ قال أقول: إنها زنت بكلبها، قال: له: وما لون الكلب؟ قال: كان كلبها أحمر. ثم دعا بالثاني فقال له: وما لون الكلب؟ قال: كان كلبها أسود، ثم دعا بالآخر فقال: أغبر، فاختلفت أقوالهم في لون الكلب فعلم أنهم كذبة، فقال: اقتلوهم لأنهم قتلوها، فسمع داود الخبر فأرسل بالشهود حالا، وفرقهم وجاءوه واحدا واحدا فسألهم، فاختلفوا في لون الكلب فعلم أنهم شهدوا عليها شهادة زور ليقتلوها حيلة فقتلهم قصاصا. هكذا قال، والله أعلم. وعلى كل حال فالقياس هو قسيمان: قياس صحيح، وقياس فاسد. فما جاء به الظاهرية .. من قياس و.. هو ينطبق على القياس الفاسد، والصحابة كانوا في غنى على القياس الصحيح. وقد جاء عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما أرسله إلى اليمن جاءه ثلاث نفر يختصمون في غلام كلهم يقول: هو ابني، فقال: اقتروا على الغلام. فوعت الفرقة لواحد منهم فقال للذي جاء الغلام في نصيبه- قال له: خذ الغلام، وادفع لكل واحد منهما ثلث الدية ثلث دية الغلام. قالوا: فلما بلغ قضاءه النبي -صلى الله عليه وسلم- صحك من قضاء على هذا حتى بدت نواجذه. ومن ذلك حديث معاذ الذي قال له: { لم تقضي؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: فيسنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي، فقال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله صلى الله عليه وسلم } . وهذا الحديث يقول ابن حزم إنه باطل، لا أصل له؛ لأنه رواه الحارث بن عمرو.. عن ناس من حمص مجهولين فهو رواية مجهول عن مجاهيل وأن الاستدلال به ضلال. وقد قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: إنه رواه أصحاب السنن بإسناد جيد. وذكر بعض العلماء أنه جاء من طريق عبادة بن نسي عن عبد الرحمن بن غنم عن معاذ بن جبل . وهذا الإسناد منهما صحيح لا شك في صحته؛ لأن رجاله معروفون، إلا أن العبيلة مما قبل عبادة بن نسي والظاهر أنه رواه عن عبادة بن نسي هو محمد بن حسان المصلوب الذي صلبه أبو جعفر المنصور في الزندقة، وهو كذاب لا يتج به. فالحاصل أن حديث معاذ لا طريق له إلا طريق السنن التي فيها الحارث بن عمرو عن قوم من أصحاب معاذ من أهل حمص . والذين قالوا: إن الحديث صحيح، وأنه يجوز العمل به استدلوا بأمرين: أحدهما: أن الحارث بن عمرو المذكور وثقه ابن حبان وإن كان ابن حبان له تساهل في التوثيق بالحديث له شواهد قوية يعتد بها كحديث الصحيحين: { إذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر، وإذا اجتهد فأصاب فله أجران } . قالوا: وليس في أصحاب معاذ بن جبل ليس فيهم مجروح بل كلهم عدول. وإذا كان الحارث موثقا، وأصحاب معاذ كلهم عدول فالحديث مقبول. وكذلك قالوا: إن علماء المسلمين تلقوا هذا الحديث خلفا عن سلف، وتلقى العلماء الحديث بالقبول بكيفية عن الإسناد. ومن حديث اكتفى بصحته عن الإسناد، واكتفى بعمل العلماء به في أقطار الدنيا؛ لأن هذه الأمة إذا عمل علماؤها في أقطار الدنيا حديث دل على أن له أصلا، واكتفى بذلك عن الإسناد، وعلى كل حال فالقياس الباطل هو المذموم، والقياس الصحيح هو إلحاق النظر بالنظر على الوجه الصحيح لا شك في صحته، وأن الصحابة كذلك كانوا يفعلون، يلحقون المسكوت عنه بالمندقوق به، وهذا كثير، وقد مثلنا له بأمثلة كثيرة، ونرجو الله -جل وعلا- أن يوفقنا لما بالنسبة، وأن يختم لنا بالسعادة، ولما اهتم بالسعادة أجالنا، واختم بالعبادة غدونا وأصلنا. واجعل الجنة مصيرنا ومآلنا، اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، وبارك لنا فيما أعطيت، وقنا شر ما قضيت فإنك تقضي ولا يقضى عليك. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسيبانا أقض عنا الدين، وأعنتنا من الفقر، وأمتعتنا بأسماعتنا وأبصارتنا وقواتنا في سبيلك، ربنا آتينا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقتنا عذاب النار، ربنا أوزعنا أن نشكر نعمتك التي أنعمت علينا، وأن نعمل صالحا ترضاه...